د: عبدالقادر بوعقادة جامعة البليدة 2 علي لونيسي

الإقراء في الجزائر
"عيّنات من العصر الوسيط"

تمهيد :

اهتم علماء بلاد المغرب عموما والمغرب الأوسط منهم بالخصوص بعلوم القرآن "إقراءً و رسما و تفسيرا" باعتبار أنّ العناية بهذا العلم هو عناية بالمصدر الأول للتشريع الذي قام عليه تراث المسلمين وهو القرآن. وقد خلفت لنا عنايتهم بهذا الباب بروز العديد من الطلبة الذين صاروا شيوخا ولهم من المصنفات ما عزز تواجد هذا العلم في ربوع بلاد المغرب الأوسط. في هذا الإطار سنبحث من خلال مداخلتنا عن مظاهر العناية التي أولاها المغاربة لهذا العلم وسنوضح المراحل التي مرّ بها علم الإقراء تحديدا في بلاد المغرب، ونقدم نماذج من العلماء الذين اهتموا بالإقراء من خلال ذكر مصنفاتهم وشيوخهم ورحلاتهم على مستوى بلاد المغرب الأوسط" الجزائر" في العصر الوسيط، لننتهي في الأخير إلى استخلاص قيمة علوم القرآن والإقراء تحديدا لدى ساكنة هذا المجال منذ نهاية الفتح إلى نهاية العصر الوسيط.

وقبل الخوض في الموضوع من الواجب الملاحظة أنّ قيمة القرآن لدى المسلمين وباعتباره المحور الذي التفّ حوله المسلمون لأنّ " القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف والمتواتر بين الأمة"[1]، وهو التعريف الذي غلب عند علماء الأمة، فإنّ تيار الاستشراق بجميع أصنافه قد وجّه عنايته للولوج إلى تراث المسلمين وفكرهم، وركّزت طائفة منهم أبحاثها على اختلاف القراءات، فتعاطت معها بسلبية هادفة[2] على اعتبار المكانة التي تميز بها القرآن لدى المسلمين، والدافعية

[1] ابن خلدون: المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 ،2003 ،ص 419.

[2] أنظر ما ألفه المستشرق اليهودي اجناتس جولدتسيهر (ت1921) حول القراءات من خلال كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، والردود التي قابله بها العلماء المسلمون لأجل تصويب ما أمكن

التي يمثلها بالنسبة لهم. وقد اتخذوا من اختلاف القراءات منفذا للتشكيك في الأصل الأول للحضارة الإسلامية، ولاتزال أبحاثهم جادة في استنطاق أصول التراث الإسلامي بغية السيطرة على هذه المنابع التراثية. ومن هذا المنطلق بات واجبا على النخبة الفاعلة أن تنتبه إلى حملات الإساءة إلى الأصول بمزيد من البحث والتوضيح والتوجيه في ظل غفلة العامة. وموضوع الاستشراق بمدارسه يحتاج إلى محاور بحث وملتقيات فكر.

1- دخول علم القراءات إلى الغرب الإسلامي

يشير ابن خلدون في مقدمته إلى أنّ الصحابة تداولوا القرآن، و تواتروه بطرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها، وتداولها الناس بعدهم إلى أن استقر الأمر في القراءات السبع[1]، ولم ينته الناس إلى هذا الحدّ، بل زيد عليها ثلاث قراءات فصارت عشرة، ثم أضيفت أربعة فصار أربع عشرة قراءة بما فيها الشاذة، وقد انتشرت هذه القراءات في بلاد المسلمين بنسب متفاوتة. ومنها بلاد المغرب والأندلس التي صارت فيها القراءة مثل بقية العلوم صناعة، فقد تناقلها الناس جيلاً بعد جيل إلى أن تولى مجاهد[2] إمارة دانية والجزائر الشرقية على عهد المنصور بن أبي عامر، حيث انتهت الرواية في عهده إلى أبي عمرو الداني المعروف بابن الصيرفي

تصويبه. أنظر جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، تق عبدالحليم النجار، مكتبة الخانجي ، مطبعة السنة المحمدية، مصر، القاهرة، 1955؛ جبل (محمد حسن): الرد على المستشرق اليهودي جولد تسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية، طنطا، مصر، ط2، 2002.

[1] ابن خلدون: نفسه، ص 419.

[2] مجاهد العامري الذي قيل بأن أصله رومي، كان زمن حكم المنصور بن أبي عامر، تأمّر على دانية والبليار فيما بين 400- 436هـ/1009-1045م راجع سياسته وأعماله عند سيسالم عصام: جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، دار العلم للملايين، ط1، 1984، بيروت. ص136.

عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي (372 – 444/972 – 1052) الذي رحل إلى بغداد وأخذ عن شيوخها[1]، ثمّ رجع إلى موطنه ليؤسس مدرسته التي راج تأثيرها في كامل بلاد المغرب والأندلس، وقد بقيت مستمرة بعد وفاته.

كان الغالب على أهل المغرب قراءة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت 156هـ/ 773م) مضافا إليها رواية نافع المدني (ت170هـ/787م)، والقراءتان أدخلهما الفقهاء الأحناف والمالكية، وكان من أبرز من أدخلهما (محمد بن زرزور أبو القاسم عبد الله الفقيه الحنفي وابن زرعة دفين سبتة، وأبو موسى الهواري الذي رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن الداخل (138هـ/756م)، وعبد الله بن الغازي بن قيس القرطبي الذي نقل رواية نافع، وعثمان بن على بن عمر النحوى الصقلي الذي كان له تأليف في القراءات، وغلبون بن المبارك (ت 389هـ/999م) صاحب مصنّف الارتداد في القراءات، وأحمد بن سعيد بن أحمد بن نفيس الطرابلسي (ت430هـ/ 1061م)[2]. كما يشير المقري في النفح إلى أبي عبد الله محمد بن خيرون (ت 306هـ/919م) –أثناء ترجمته له– على أنّه لما عاد إلى المغرب من رحلته قدم برواية نافع فاجتمع إليه الناس ونشرها في أهل إفريقية، وكان الغالب عليها حرف حمزة، و لم يكن يقرأ برواية نافع إلاّ الخواص، كما رحل إليه أهل القيروان[3]، وقد تُركت رواية حمزة

[1] نفسه : ص 419.

[2] جمع ذلك سامعي (إسماعيل): دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من ق2– ق5هـ رسالة ماجستير مناقشة بجامعة الجزائر ، قسم التاريخ، إشراف موسى لقبال، 1995/1994 صص 136، 137.

[3] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2 ، تحقيق إحسان عباس دار صادر، بيروت، ط 1998، ص 65 ؛ الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،ج1، ط7، 1997 ، ص 269 ؛ الكنوني عبد السلام أحمد: المدرسة القرآنية في المغرب، ج1، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1981. ص 55.

لموافقتها المذهب الحنفي الذي صار يتراجع لبروز مذهب أهل المدينة (المذهب المالكي)في الفقه.

قامت بعض الدراسات بتقصى دخول الرواية المدنية إلى بلاد المغرب والأندلس، فوجدت بدايتها في المائة الثانية، حينما حملها كبار أصحاب مالك ونافع، وكان على رأسهم أبو محمد الغازي بن قيس القرطبي، وأمّا في المائة الثالثة فقد تكرّست بريادة أكابر رواد مدرسة ورش بمصر، وأمّا في المائة الرابعة فقد كثرت الرحلات التي ارتادت الآفاق في طلب القراءآت[1]. فكان من رواد المرحلة الأولى الغازي بن قيس وابنه عبد الله (ت230هـ/845م) و عبد الله بن مهران المؤدب (ت 230هـ/845م) وأصبغ بن خليل أبو القاسم القرطبي (ت 273هـ/887م) ثم عبد الملك بن حبيب الفقيه الذي أخذ عن الغازي وشبطون وصعصعة بن سلام، ثم دخلت رواية ورش إلى الأندلس على يد محمد بن عبد الله القرطبي، كما أدخلها أيضا أبو عبد الله محمد وضاح القرطبي (199- 286)[2]، ثم جاء بعده أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن باز المعروف بالقزاز، ثم ارتاد عدد من الأندلسيين والمغاربة والإفريقيين الرحلة إلى مصر والمشرق لجلب رواية ورش، فكان منهم سعيد بن عبد العزيز الثغري الأندلسي، وعبد الملك بن إدريس بن نافع الأندلسي، ومحمد بن سليمان أبو عبد الله الأنصاري[3].

يشير المقري أيضا إلى دخول رواية ورش بلاد المغرب والأندلس، فيذكر فضل أبي الحسن علي بن محمد الانطاكي الذي نزل الأندلس، فصار المحدث بها والمقرئ المهتمّ برواية ورش، وقد أخذ عنه جماعة من قراء الأندلسيين باعتبار أنّه كان

[1] أنظر حميتو عبد الهادي: قراءة الإمام نافع عند المغاربة، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية. المغرب،ط 1424/2003، ص 182.

[2] الخشني: أخيار الفقهاء و المحدثين، دراسة وتحقيق ماريا لويس آبيلا و لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد ، 1992.ص 192.

[3] حميتو: المرجع السابق، ص 191.

رأسا في القراءات لا يتقدمه أحد فيها، وكانت وفاته بقرطبة سنة377هـ/988م[1]. وأكثر من يعود إليهم فضل إدخال رواية ورش عن نافع إلى إفريقية والمغرب والأندلس مكي بن أبي طالب بن محمد القيسي، الذي رحل سنة 367هـ/ 978م، فأخذ القراءات عن أبي طيب بن غلبون، ثم عاد إلى القيروان، فأقرأ بها وتوفي هناك سنة 437هـ/ 1016م، كما قرأ على ابن غلبون أحمد بن علي أبو جعفر الأزدي القيرواني وغيره[2]. وذكرت الدراسات شخصية أخرى اهتمت بقراءة ورش عن نافع، وهو أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهزلي البسكري (404 - 465هـ/1014-1073م)، والذي يبدو أنّه من بسكرة إحدى حواضر المغرب الأوسط حاليا، وقد ترك وراءه مؤلفات كثيرة منها كتابه(الكامل في القراءات المشهورة والشواذ)، لكن تتبعنا لمصنفي أبو الخير ابن الجزري ت833هـ (النشر في القراءات العشر) و (غاية النهاية في طبقات القراء) حينما يتحدّث عن هذا العالم، لا يذكر سوى أنّه مغربي يشكري، وقد صححه عدد من المحققين على أنه من بسكرة[3].

---

[1] المقري : نفح الطيب، ج3، ص 144

[2] ذكر عدد منهم خضيري (حسن أحمد): علاقة الفاطميين في مصر بدول المغرب. 362-567 / 973 - 1171،مكتبة مدبولي،القاهرة: ط1،ص 208.

[3] حسن خضيري أحمد: علاقة الفاطميين في مصر بدول المغرب. 362-567 / 973 - 1171، مكتبة مدبولي ، القاهرة: ط1. ص 209. راجع الذهبي (شمس الدين ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، مج 10، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2003، 135. ونجده في نفس المصنف لمحقق آخر وهو عمر عبدالسلام تدمري يجعله في حوادث ووفيات سنة460هـ ، الذهبي: تاريخ الإسلام ، تح عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1994، ج30، ص513، تر رقم 319. ابن الجزري (أبو الخير): غاية النهاية في طبقات القراء ، تح ج. براجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006،ج2، ص 345، تر رقم 3929. وقد جاء في القراءات العشر لنفس المؤلف ذكر يوسف بن علي بن جبارة بأنه رحل من المغرب إلى المشرق وطاف البلاد وروى عن أئمة القراءة حتى انتهى إلى ما وراء النهر وقرأ بغزنة وغيرها وألف كتابه الكامل جمع فيه

وقد أشار ابن الجزري (ت 833هـ/1430م) أيضا بأنّ علم القراءات لم يكن متوافرا ببلاد المغرب والأندلس إلى أن جاء أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي(ت429هـ/1038م)، الذي كان أوّل من أدخل القراءات "القراءات العشر"إليهما، وقد صنف في ذلك "كتاب الروضة"، ثم تبعه أبو محمد مكي بن أبي طالب(ت437هـ/1046م)، فصنف التبصرة والكشف، وتبعهما أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت444هـ/1053م)، الذي صنف أيضا في هذا الباب التيسير وجامع البيان[1].

و لا يُغفل دور المدرسة البغدادية في التأثير الإقرائي – فضلا عن المدرسة المصرية– على بلاد المغرب والأندلس، فقد كان لبغداد دور مهم في دخول رواية المدينة (ورش) إلى بلاد المغرب والأندلس وبالأخص حاضرة قرطبة، يبرز ذلك خلال رحلة بعض العلماء الأندلسيين إلى بغداد لأخذ العلم، وممن يُذكر في هذا الشأن الفقيه الأندلسي عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف (أبو محمد الثغري ت 383 هـ/993م)، وسليمان بن خلف أبو الوليد الباجي الذي رحل إلى المشرق سنة 426هـ/1034م، وكان أبرزهم العالم الأندلسي الذي تلقى قراءات البغداديين والشاميين والمصريين والمكيين وهو أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي (ابن الصيرفي) المعروف بأبي عمرو الداني. وكان من روافد دخول القراءات إلى المغرب والأندلس رحلة بعض القراء البغداديين إلى قرطبة، ووجود عدد من علماء

خمسين قراءة عن الائمة والف وأربعمائة وتسعة وخمسين (1459) رواية وطريقا، وقد ذكر ايضا بأنه لقي من المغرب إلى باب فرغانة ثلاثمائة وخمسة وستين(365) شيخا. أنظر ابن الجزري (أبو الخير): النشر في القراءات العشر ، تح محمد الضباع شيخ عمم قراء الديار المصرية. د ت ط. ج1

[1] انظر ابن الجزري: النشر في القراءات العشر . ج1، ص 34 .

القراءات البغداديين بمصر يحملون لواء المدرسة البغدادية في الإقراء هناك، بالإضافة إلى عبور عدد من الكتب البغدادية إلى الأندلس[1].

2- الإقراء في المغرب الأوسط قبل القرن 6 هـ/12م

أما فيما يخص بلاد المغرب الأوسط، فإنّ موضوع الإقراء والقراءات وأهم المشيوخات و المصنفات في هذا الباب فإنّه يبقى غامضا في مراحله الأولى لمصادره الشحيحة التي لا تفي بالقدر الكافي. ومع ذلك لم يكن هذا المجال بمنأى عن التطورات الحاصلة بالأندلس وإفريقية بحكم الجوار، فقد وُجِد من أهل المغرب الأوسط من كان ضمن العلماء المهتمين بهذا العلم في الحواضر المغربية، حيث يشير صاحب الديباج (ابن فرحون) إلى شخصية علمية ذات أصول أندلسية وفدت إلى بجاية وهو فضل بن سلمة بن جرير بن منخل الجهني المكني أبو سلمة البجائي، فبالإضافة إلى فقهه وحفظه للمسائل المالكية نجده يقرئ ويدرّس بالمسجد الجامع ببجاية إلى أن توفي سنة 319هـ/931م[2]. كما تحدثنا المصادر عن قرّاء من المغرب الأوسط ممن رحلوا إلى الأندلس موطن القراء والقراءات، فكوّنوا لأنفسهم موقعًا، وصاروا يتصدون للإقراء في جامع قرطبة الكبير، وقد كان منهم أبو العباس أحمد الباغائي المولود بباغاية سنة 345هـ/ 956م الذي تصدى للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وهو الذي استأدبه المنصور بن أبي عامر لابنه عبد الرحمن، هذا العالم الذي تحدّث عنه ياقوت الحموي وأشار إلى انعدام النظراء له في علوم القرآن والفقه على مذهب مالك، وقد كانت

[1] أنظر أبوعبية (طه عبد المقصود): الحضارة الإسلامية، دراسة في العلوم الإسلامية، مج2، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 2004، ص488 وما بعدها. و قد أورد عدد من الكتب المهتمة بالقراءات و التي وفدت إلى الأندلس. أنظر نفس المرجع: من ص 491 إلى ص 496.

[2] ابن فرحون : الديباج المذهب، تحقيق مأمون الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1996 . ص 315.

وفاته بالمشرق بعد رحلة سنة 401هـ/1011م[1]. كما أشار يحي بن خلدون إلى أسرة عالمة اهتمت بالقراءات والفقه كانت قد حلّت بتلمسان وافدة عليها من قلعة حماد، حيث يذكر منها أبو يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي الذي صار شيخ تلمسان في القراءات، وأنّه كان مستجاب الدعوة، وقد أخذ عنه وتأثر به ابنه أبو زيد الصنهاجي وحفيده أبو يوسف بن أبي زيد، كما أخذ عنه أخوه محمد بن عبد الرحمن اللاحق به في الفضل و الدين[2].

أ- عيّنات من أشير "الحاضرة الحمادية"

لقد برز الاهتمام بالإقراء في المغرب الأوسط تعليما و تدريسا و تأليفًا، منذ بداياته في الظهور ببلاد المغرب، وكانت حاضرة ببجاية وبقايا مدن الدولة الحمادية الإطار الذي احتوى هذا الصنف من الفقهاء. وغلب على عدد منهم النبوغ خارج هذا المجال أمثال عبد الله بن محمد الأشيري (ت 561هـ/1166م) الذي نال –بالإضافة إلى الإقراء– شرف علم الحديث، وهو الذي تعلم بأشير – وهي الحاضرة الحمادية – ثمّ رحل إلى المغرب والأندلس، ثم إلى الشام والعراق، وكان في رحلته وإقامته بهذه الأقاليم وحواضرها يدرس ويقرئ ويحدث، وقد ظهر تأثيره كان بالأخص في بغداد[3]. وتحدثت المصادر عن أشيري آخر اهتم بالقراءات وهو أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب، والذي يُنسب أيضا لأهل تلمسان، نشأ ودرس بتلمسان ثم بالأندلس، فأخذ بألمرية عن ابن الحجاج بن يسعون سنة

[1] أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1404هـ/1984م. ج1، ص 325 (مادة باغاية).

[2] ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد، تح عبدالحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية، ط1980.، ج1، ص 157.

[3] هلال عمار: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية بين ق3و14هـ/ق9 و 20م، ديوان المطبوعات الجامعية، 2005، ص 163.

540هـ/1146م، وله مصنفات في اللغة والنسب والقراءات، كما أمدّنا في مجال الفقه بمجموع في غريب الموطأ، وصنّف في التاريخ كتابا سمّاه "نظم الآلي في فتوح الأمر العالي"، وقد كان حيًا سنة 569هـ/1174م أي أيام الموحدين، ونظرا لقيمته العلمية ومكانته الاجتماعية فإنّه قد ارتقى مرتبة كاتب عبد المؤمن بن علي[1]. كما كان أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بالمسيلي (ت539هـ/1145م) من الذين ينسبون إلى المسيلة – و هو من أهل العناية بالتجويد والحديث – قد وصل أيضا درجة متقدمة في الإقراء، حيث تصدى لذلك بأشبيلية، وألّف كتابًا في الإقراء سماه "التقريب". ويُذكِّر يحي بن خلدون ضمن هذا الصنف من العلماء بعالم في القراءات– كان ضليعًا في الحديث ينقده ويبحث عن السند العالي، فصار ضمن أعالي الرواية– و هو أبو بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الأشبيلي، الذي تتلمذ على أحد أعلام المغرب الأوسط وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن حرب المسيلي – السابق الذكر– و قد نزل بتلمسان وعمّر بها إلى أن توفي سنة 600هـ/1204م[2].

ب- مدرسة بجاية الإقرائية

وبالإطلاع على ترجمة عبد السلام الزواوي أبو محمد زين الدين بن عمر بن سيد الناس المولود ببجاية عام 589هـ/1193م يتبيّن لنا مدى حرص البجائيين – وهم نموذج لعلماء المغرب الأوسط– واهتمامهم بهذا العلم والتمكّن فيه، وأنّ الخوض فيه وتدريسه كان ضمن أولويات منظومتهم الدراسية. حيث نبغ عبد السلام الزواوي

[1] انظر ابن القطان ابو محمد حسن بن علي المراكشي (ق7هـ): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح محمدعلي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990 ، ص 210 ؛ ابن الأبّار أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي: التكملة لكتاب الصلة ، تح عبدالسلام الهروس، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت، ط1995 ، ج1، ص 218.

[2] ابن خلدون يحي:المصدر السابق ،ج 1، ص 168 ,

في القراءات والفقه، فصار ببجابة فقيها مقرئا، ثم رحل إلى المشرق وتنقّل بين الإسكندرية والقاهرة ودمشق، وتولى مشيخة الإقراء بدمشق بالتربة الصالحية، كما تولى كذلك قضاء المالكية، وصار يتصدى للتدريس والإفتاء إلى أن توفى سنة 681هـ/1282م[1]، وهو ما يعني أنّ قيمة المدرسة البجائية والمغرب أوسطية العلمية تظهر في تعاطي المناصب العلمية المرموقة خارج ديار المغرب الوسط والتفاف الناس حول علمائها.

ويكمن سبب نبوغ المدرسة البجائية والمغرب الأوسطية عمومًا في مجال الإقراء – وربما في غيرها من العلوم والفنون كذلك– في ذلك التواصل القائم بينها وبين حواضر الأندلس، إذ وفد عدد لا بأس به من الأسر الأندلسية إلى بجاية، بسبب الخطر المسيحي أو الفتن الداخلية، وصار لهذه الأسر من خلال أفرادها تأثير علمي واضح في شتى العلوم. و لعل الاطلاع على ترجمة محمد بن محمد بن عبد الله بن معاذ اللخمي ممّا يؤكد هذه الخاصية، فهو من أصل إشبيلي وصل درجة العلماء في الإقراء، ويُذكر وفوده على قلعة حماد، حيث بقي هناك مدة من الزمن، ثم رحل نحو فاس التي استقر بها إلى وفاته سنة 553هـ/ 1158م، وقد ترك هذا العالم مؤلفات في هذا العلم منها "الإيماء إلى مذاهب السبعة القراء"، وله أيضًا أرجوزه سمّاها "لؤلؤة القراء"[2]. يمثل هذا العالم أنموذج التخصص في الإقراء الأندلسي الذي أثر بالمغرب الأوسط. وهناك نموذج آخر أثر بتعدد مواهبه في جميع المجالات وعدّ من العلماء الموسوعيين الذين خاضوا في مجالات علمية متخصصة كثيرة ببجاية، تمثل هذا في

[1] بوعزيز يحيى: أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 1995.، ج1، ص 288.

[2] بن مخلوف محمد (1360هـ): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح عبد المجيد خيالي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003.، ج1، ص 211 ؛ أبو دياك (صالح محمد فياض): العلاقات الثقافيةبين المغرب والأندلس، مجلة التاريخ العربي، إتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ع31،س1987،13، ص 127.

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء بن مهند بن عمير اللخمي القرطبي الأصل، الذي حلاّه ابن فرحون بالمقرئ المجوّد والمحدّث المكثر، و أنّ سماعه كان قديمًا ومعرفته واسعة، وكان عالي السند ضابطًا في ما يُحدث به، و له اختصاصات في الفقه والأصول، وكان مقدمًا في علم الكلام، كما اشتهر بالمهارة في الطب والهندسة والحساب، ونال درجة المحققين في المنقول والمعقول. ومن اختصاصاته العلمية أن تكفل بقضاء بجاية، ثم تحول إلى حواضر أخرى بالمغرب الأقصى حيث فاس ومراكش، ليرجع بعدها إلى أشبيلية، حيث كانت وفاته سنة592هـ/1192م[1].

إذًا إلى غاية نهاية القرن 6 هـ لم تكن حواضر المغرب الوسط تُعدم صنف الفقهاء القراء، بل كانت تتوافر على جلّة من العلماء الذين تمكنوا من هذا العلم، واصطفوا في رواق هذا الصنف، بل إنّ تأثيرهم قد عمّ بلاد المغرب و المشرق، وأنّ الأثر الأندلسي عليهم كان باديًا واضحًا من خلال تلك الرحلات غدوًا و رواحًا بين حواضر المغرب الأوسط والأندلس، وهي فترة تسايرت مع ما كان تتميز به بلاد المغرب عمومًا في مجال الإقراء. وعمومًا فإنّ الملاحظة البارزة تكمن في أنّ شدة الاهتمام بالقرآن تبدو واضحة لدى علماء المغرب، وإنّك لا تجد عالما إلاّ وهو يتقن القراءات السبع[2]، ممّا يجعل هذا الصنف – صنف الفقهاء القرّاء – يفرض نفسه من الملاحظة بالمقارنة مع الأصناف الأخرى، فالمقابلة مثلا بين الفقهاء القضاة والفقهاء القراء توضح مدى الاهتمام بعلم القراءات مثلما توضح – من جهة أخرى – دخول هذا العلم كمادة أساس في المنهج التعليمي على جميع المستويات.

[1] ابن فرحون: المصدر السابق، ص 116.

[2] بنيس نعيمة: فن الفهرسة بالمغرب خلال ق8هـ فهرسة ابي زكريا يحي بن أحمد السراج نموذجا، أطروحة دكتوراه، إشراف محمد الراوندي، دار الحديث الحسنية، الرباط، 2006.، ج1، ص 124.

3- الإقراء بالمغرب الأوسط بعد ق6هـ/12م

أ- عيّنات من المصنفات المتداولة

ازدادت العناية بهذا العلم بالمغرب الأوسط فيما بعد القرن 6هـ/12م ، ويظهر ذلك من خلال التآليف المتداولة، وعدد المهتمين بهذا العلم خصوصًا بعد نزوح عدد لا بأس به من الأسر الأندلسية نحو تلمسان والجزائر وبجاية وغيرها من الحواضر في ظل الاضطرابات التي ضربت بلاد الأندلس. وكانت مادة الدرس الإقرائي بالمغرب الأوسط لا تختلف عنها في باقي حواضر المغرب، حيث أنّ الكتب المتداولة نجدها هي الأساس في معظم الحواضر، ويمكن أن نلحظ عيّنتان، الأولى وردت في برنامج التجيبي القاسم بن يوسف ت.730هـ/ 1379م الذي استخرج برنامجه سنة 702هـ من خلال رحلته نحو الحج، التي بدأها في حدود 695هـ/1296م، حيث ذكر كتاب التيسير لحفظ مذاهب القراء السبعة، وقد صنفه أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ابن الصيرفي) قال: " قرأت هذا الكتاب إلى الفصل الأولى من باب ذكر حمزة و هشام في الوقف والهمز على الشيخ الفقيه الخطيب عبد الله بن صالح الكناني، وتناولت جميعه من يده، ثم سمعته كاملاً عليه وعلى العلامة أبي القاسم الغافقي مجتمعين بجامع بجاية الأعظم[1]. في حين يشير ابن خلدون في رحلته إلى مصنفات أخرى في حدود نهاية القرن 8هـ/14م حيث تحدث عن أخذه في الإقراء من خلال قصيدتي الشاطبي أبو القاسم بن فيّره بن خلف الرعيني الشاطبي"اللامية في القراءات" وتعرف بالشاطبية و حرز الأمان و "الرائية في الرسم" وهي التي تعرف بالعقيلة[2]. وكان من جملة من أخذ عنهم ابن خلدون الشيخ أبي العباس أحمد الزواوي

[1] التجيبي (القاسم بن يوسف ت. 730 هـ): برنامج التجيبي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس 1981، ص 36.

[2] أنظر ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقاً ، سلسلة ذخائر التراث، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط2004. صص 23، 24 ؛ عمد الشاطبي بن فيّره

(كان حيا 758هـ/1357م) الذي حلاّه بإمام المقرئين بالمغرب، حيث قرأ عليه القرآن العظيم بالجمع الكبير بين القراءات السبع من طريق أبي عمرو الداني (371-444هـ/982-1053م)، وكتاب محمد بن شريح الإشبيلي (388-476هـ-/998-1084) في ختمه لم يكملها، مثلما سمع عليه عدّة كتب أخرى[1].

كما تداول الناس كتاب "الطراز في شرح الخراز" لمحمد بن عبد الله التنسي مؤرخ بني زيان، وهو عبارة عن شرح لمورد الضمآن في رسم أحرف القرآن في شكل أرجوزة من 154 بيتًا نظمها محمد بن ابراهيم الشريشي الفاسي المعروف بالخراز سنة 703هـ/ 1303م، وقد شرحها التنسي حينما رأى اضطراب الناس (بين الإضافة والاختصار) في شرحهم لهذا المؤلف في ضبط القراءات والرسم، ويضاف إلى ذلك كتاب آخر لمحمد بن أحمد المصمودي، الذي وضع رجزًا في القراءات سماه "المنحة الحكّية لمبتدئ القراءة المكية"، وقد بيّن فيها أوجه الاختلاف بين عبد الله المكي و قراءة نافع[2].

ب- نماذج من العلماء القراء في هذه المرحلة

لقد برز الاهتمام بعلم القراءات كمكوّن ثالث لعلوم القرآن بعد الرسم والتفسير، ونبغ فيه علماء المغرب الأوسط نبوغًا جعل منهم مشايخ للإقراء في بلاد المغرب والأندلس والمشرق، حيث يشير صاحب البغية إلى أبي علي منصور الزواوي على أنّه أخذ العلم عن أبي علي ناصر الدين المشذالي ببجاية وغيره من علمائها،

إلى تهذيب كتابي التسيير و المقنع في مؤلفين منهما رائيته على كتاب المقنع للداني: انظر ابن خلدون: المقدمة، ص ص 419، 420.

[1] ابن خلدون: الرحلة ، ص ص 27، 28.

[2] بوعياد (محمود): آثار التنسي، مجلة الثقافة، ع47، س8، 1978، ص 42 ؛سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (ق10- 14هـ /16- 20م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1981.: ج1، ص114.

مثلما تفقه على علماء الأندلس والمغرب، وذكر أنّه تصدى للإقراء بغرناطة وتلمسان[1]. و في بجاية أيضا كان أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي عمار المسيلي (ت. 789هـ/1387م) قد تميّز بالإقراء، وبلغ درجة الإدراك في ذلك بالإضافة إلى إشرافه على قضاء الجماعة[2]. وأشار السخاوي إلى العالم الفقيه عيسى بن أحمد بن الشاط الحنديسي البجائي، فذكر بأنّه تصدر الإفتاء والإقراء، وناب في الخطابة ببجاية بجامعها الأعظم و قد فاق الستين (60) سنة 890هـ/ 1485م[3].

أما بتلمسان فقد كان الشريف التلمساني (ت 771هـ/1370م) مهتما بالقرآن حيث قام بتفسيره في خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب، وقد حلاّه أصحاب التراجم بأنّه كان عالمِا بحروف القرآن ونحوه وقراءاته واختلاف رواياته[4]. كما يشير صاحب البستان إلى عالم آخر برز بتلمسان وهو الأستاذ الندرومي التلمساني أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن الذي كان حيًا بعد 830هـ/1427م، وهو من أصحاب ابن مرزوق الحفيد (ت842)، الذي تخصص في الإقراء، وصار يتصدر لتدرسيه حيثما حلّ[5]، ومن الحواضر التي حلّ بها كانت

[1] بن خلدون (يحي): بغية، ج1، ص 172. ط حديثة؛ ج1، ص 132، ط قديمة؛ التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح عبدالله الكندري، دار ابن حزم ، بيروت،ط1، 2002. ، ص 487.

[2] ابن قنفذ: شرف الطالب في اسنى المطالب(ت810هـ): ، تح محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، ط1، 2009، ص 258.

[3] السخاوي شمس الدين محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دت. مج 3 ، ج6، ص 151.

[4] ابن مريم: نفس المصدر، ص 172.

[5] وكان الحفيد ابن مرزوق الخطيب (ت842هـ) متخصصا ايضا في القراءات، ومن جملة ماي بين ذلك أنّه ألّف نظما في القراءات السبع حاذى به مصنف "حرز الأمان"، وهي نسخة منفردة

القاهرة حيث تصدر هناك الإقراء[1]. وتحضر أسماء عديدة من حواضر المغرب، اشتهرت بالإمامة في الإقراء، منهم من كان تحت تصرف السلطان بالحضرة العلية " الإمارة الحفصية"، حيث يشير التنبكتي إلى أحمد بن مسعود القسنطيني (أبو العباس) والشهير بابن الحاجة، على أنّه كان إمامًا مقرئًا، تتلمذ عن الوادي آشي وأبي العباس الزواوي، ويظهر أنّه كان مختصًا بالإقراء في دار السلطان[2].

خاتمة

وهكذا تبيّن بأنّ فنّ الإقراء ببلاد المغرب عمومًا والأوسط خصوصًا كان من الفنون الرئيسية لكل من أراد السير في خط العلم، وتبرز أهميته في المراحل الأولى والمتأخرة من الدرس، فلا يصح لعالم أن يتناول مجال الفقه أو التفسير إلاّ إذا كان مهتمًا بهذا العلم. كما أنّ حواضر بلاد المغرب لم تكن غائبة عن أخذ هذا العلم في مراحله الأولى، إلاّ أنّ المصادر تظهر شحيحة قبل القرن 5هـ.، ممّا يفرز نوعًا من الغموض نحو هذا العلم في هذا المجال الفسيح.

و إذا كانت حواضر المغرب الأوسط قد استفاد طلبتها من تلك الرحلات نحو المشرق أو الأندلس لأخذ هذا العلم وجلب مدوناته فإنّه بعد القرن 6 هـ قد كان لمشايخ المغرب الأوسط دور في إثراء هذا الفن بالنشر والشرح و التدريس، حيث يشير ابن فرحون إلى عينة أندلسية دخلت بجاية، حينما ترجم لمحمد بن ابراهيم بن محمد بن حزب الله بن عامر بن عيشون المعروف بابن الحاج، فتحدث عن أخذه

غير مفقودة توجد كاملة حسنة لدى أحمد نجيبويه " مجلة قطر الندى" ، كما توجد ضمن مخطوطات "نشيت " بموريطانيا.

[1] أنظر: ابن مريم محمد بن محمد : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تح محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 2010. ، ص 54 ؛ التنبكتي: كفاية، ص 62.

[2] التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج بتطريز الديباج،تح علي عمر، مكتبة الثاقفة الدينية،القاهرة، ط1،ج 2003.1 ، ص 105.

جملة من العلوم منها الإقراء على يد العالم البجائي أبي علي ناصر الدين المشدالي، وصار ابن عيشون بهذا التتلمذ إماما في القراءة والحفظ[1]. كما أشار القادري كذلك إلى عينة مشرقية وهو عمر بن سالم الفاكهاني اللّخمي الإسكندري (654-734هـ/1256-1334م) الذي أخذ عن ابن دقيق العيد والبدر بن جماعة، وأنّه أخذ القراءات عن أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز المازوني حافي رأسه – المنسوب إلى مازونة والذي لا نعرف عنه الكثير من الآثار – [2].

والحاصل بالنهاية، أنّه من خلال تعاطي فنون العلم والإشراف على تطبيقها على المستوى الاجتماعي والثقافي برز صنف الفقهاء القراء كمعطى واضح المعالم، ومؤثر له أهميته على مستويات عدّة منها مجال التدوين، مع الملاحظة أنّ الكثير من المصنفات في مجال الإقراء لعلماء المغرب الأوسط لم يتمّ تحقيقها، أو حتى الوصول إليها، و في هذا السياق تندرج رسالة عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت 878هـ/ 1574م) الموسومة ب"الدرر اللوامع في قراءة نافع" والتي هي عينة لمجموعة مؤلفات في هذا الباب تمّ إتلافها وتناسيها، مما أحدث نوعًا من الخلل على المستوى التصوري للثقافة في بلاد المغرب الأوسط. وهو ما يدفعنا إلى ضرورة الانتباه، و بذل الجهد لاسترجاع هذا التراث، قبل أن يفتقد الأمل فيه بفعل عوادي الدهر وغفلة أولي النهى.

[1] –ابن فرحون: الديباج، ص 385.

[2] القادري(محمد بن الطيب 1124هـ- 1187هـ): الاكليل و التاج في تذييل كفاية المحتاج،تح مارية وادي، مطبعة شمس، وجدة، المغرب، ط2009، ص 491.